

الطقوس العلاجية الجماعية
وأبعادها النفسية و الاجتماعية
الأستاذة فاطمة الزهراء شحان، جامعة أدرار

ملخص:

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على الظواهر الطقسية الجماعية وبالتحديد العلاجية حيث بداية تطرقنا إلى الجماعة العلاجية ومن ثمة تعريف الممارسات العلاجية الجماعية الفلكلورية وأبرز وظائفها النفسية والاجتماعية، وأهم الطقوس العلاجية الجماعية عموما، مع تسليط الضوء على أهمها وأكثرها انتشارا بولاية أدرار على وجه الخصوص، لتركز في هذا العنوان على طقس يتخذ كطريقة علاجية لبعض الإعاقات النفسية بل وحتى العضوية بالمنطقة، والمعروف باسم -لعبيد- وأخيرا تفسير الطقوس العلاجية.

الكلمات المفتاحية: الطقوس _ العلاج الجماعي _ الفولكلور

Abstract:In fact, the current study aims to identify the liturgical folk group therapeutic phenomena in Adrar and the most important psychological and social functions performed in the community and which are still prevalent and dominant on the minds of people who exercise frequently.

In addition to that (karkabo or ritual of laabid) from the therapeutic perspective and recreational manifestation of these practices, to which we pointed out in this study; and finally, we tried to interpret these therapeutic ritual .

Keywords: ritual, group therapy, folklore.

مقدمة:

تعرف منظمة الصحة العالمية الطب الشعبي فتشير أن "الطب الشعبي شكل من أشكال الطب التقليدي وتعرفه بأنه " يشير إلى الطرق والوسائل التي تنتمي إلى تراث كل مجتمع وتنتقل من جيل إلى جيل".⁽¹⁾

وتعرفه أيضا على أنه "حصيلة مجمل المعارف والمهارات والممارسات القائمة على النظريات والمعتقدات والخبرات المتأصلة في مختلف الثقافات سواء كانت قابلة للشرح والتفسير أم لا؛ وتستعمل في صيانة الصحة والوقاية من الاعتلال البدني والنفسي وتشخيصه وتخفيفه ومعالجته".⁽²⁾

وبهذا فالعلاجات التقليدية الشعبية بما تقوم عليه من معتقدات وما يدور حولها من طقوس وممارسات وأساطير وتعبيرات رمزية؛ تعتبر من أبرز الظواهر التي يعرفها المعتقد الشعبي المغاربي والمشرقي من الوطن العربي والمميزة لتراثه.

ويعد العالم الانجليزي وليم تومز (william thoms) من الذين صاغوا مصطلح الفولكلور والكلمة تتكون من مقطعين (the folk) و تعني الشعب او العامة و المقطع الثاني (lore) ويعني المعرفة و بالتالي فهو معرفة الشعب او حكمة الشعب ؛ اقترح المصطلح ليبدل على دراسة المعتقدات و العادات و التقاليد الماثورة وقصص الخوارق الغامضة و الاغاني و الامثلة الشعبية والمورثات الثقافية وغيرها ،ومن خلال ما سبق فالفولكلور هو التراث الشعبي المادي المجسد في العادات و الطقوس، و اللامادي و المتمثل في المعتقدات والذي ينتقل بين الافراد اثر الذاكرة الجماعية او الممارسات الطقسية و بالتالي هو وسيلة لابرز الهوية و تعميق جذورها ضف كونه يهتم بالطبابة الشعبية و يحاول معرفة ما نشا منها باثر الاساطير و المعتقدات و تلك الناتجة من الخبرة والتجربة (3). وإذا أردنا أن نصنف هذه العلاجات ضمن الطبابة الشعبية فمنها الفردية كالراقي والعشابي والمجرب وغيرهم. أما الجماعية فتتمثل في فرق فلكلورية تقوم بوظائف علاجية كالزار والنشرة والحضرة... الخ.

هذه الظواهر وخاصة منها المحيرة والمثيرة للاستغراب والانبهار تشد إليها بعض الأفراد والجماعات ومن خلالها يوجهون سلوكياتهم وتشكل هويتهم الفردية والجماعية من خلال التنشئة وأحياناً أخرى تعتبر رموزاً تعبر

عن تصوراتهم وقيمهم ومعتقداتهم، هاته الظواهر الطقسية التي يعتبرونها وسيلة اتصال بين الدنيوي والمقدس، وبهذا فهي تأخذ شكل القداسة وذلك لاحتوائها على رموز مقدسة وأذكار وأدعية... الخ.

1_ الجماعة العلاجية:

يمثل الطب الشعبي موروث من الموروثات الثقافية و خاصة الجماعي منه اذ يتم الإقبال على الجماعة العلاجية من طرف الآخر لأنه يجد فيها الوقوف إلى جانبه وتدعمه في شدته ومرضه،

على اعتبار أنه كان في حياة مليئة بالضغوطات وبالتالي فهو يأتي لهذه الجماعات الشعبية ليجد نوعا من الراحة أثناء تأدية الجماعة لطقوسها، و على المشارك في الطقس أن يستظهر ألامه (التعب، الحزن...) ، و يبين أن مصيره هش وأنه جاء ليطلب المساعدة من الجماعة، وهو ما نعبر عنه في مصطلحنا العامي بالنية ، وعلى الجماعة أن تتجاوب معه في طلبه التذعيمي والوقوف الى جانبه ليجد الراحة وتحطيم وحدته ويتخلص من معاناته وذلك باللجوء للمقدس، إذن فالفرد في عصرنا الحالي بدأ يبتعد عن الدين ولكن عند المرض يجد نفسه بحاجة إلى هذا الدين لكي يتخلص من المواقف التي تكون فوق قدرته، فهو دائما يحتاج إلى تجربة المقدس.⁽⁴⁾ وتجدد الإشارة الى أن هاته المجموعات العلاجية غالبا تنتسب الى طرق صوفية مثل الفرقة العيساوية و غيرها والتي تنتشر زواياها وموردوها في بعض التراب الوطني .

2. الممارسات العلاجية الجماعية الفلكلورية:

هي عبارة عن حفل ذو طقوس خاصة، منها ما يستهدف طرد الأرواح أو استرضائها ويتم ذلك من خلال تقديم أضاحي وقرابين، ومنها ما يهدف إلى الترويح بشكله الشامل، بحيث تشكل الرقصات الفلكلورية في هاته الممارسات الطقسية الدعامة الأساسية مرفوقة بإيقاعات ساخنة وسريعة. ومن خلال تأدية الرقصات التي تعتبر تعبير ثقافي للجسد فهو تعبير عن حالة انفعالية الجسم من خلالها يتسامى من كل ما هو مدنس إلى ما هو مقدس. تؤدي هذه الطقوس في شكل جماعي فرق أو جماعات أين يطغى عليها جو من الروحانيات، هذا الجو المفعم بالأهازيج والذي تصل بصمته إلى الآخر.

3. الوظائف العلاجية للممارسات الطقسية الفلكلورية: من أهم هذه الوظائف نجد:

– التنفيس: هو إطلاق سراح الانفعالات أو الرغبات المكبوتة بأي وسيلة من الوسائل، كإخراجها من العقل الباطن إلى العقل الظاهر، والتفكير فيها مرة أخرى وإرضائها بالفعل والعمل بمقتضاها، كأن يحصل الطفل على ما كان قد حرمه من لعب أو منزلة لدى أبيه أو أمه أو أستاذه أو يحصل شخص على ما كان يرغب فيه.

يورد علماء النفس اعتراضا فيقولون فيما يخص فعالية العلاج من خلال التنفيس فيما إذا كان النجاح في العلاج يرجع في الواقع إلى التنفيس نفسه أو إلى استعادات الذكريات الماضية، ونقل

الربغبات المكبوتة من العقل الباطن إلى العقل الظاهر"؛ إن الأمرين كثيرا ما يحدثان معا عند التنفيس حينئذ يعد التنفيس وسيلة للإسراع في العلاج؛ على أن التنفيس قد ينفرد بالعلاج إذا كان السبب شعوريا يعلم به المريض ولكن يخفيه. (5)

- **التفريغ:** يرى المنحى التحليلي أن الحد من السلوك العدواني يتمثل في تفريغ الشحنات العدوانية ويعتقدون أصحاب هذا الرأي كذلك أن تفريغ ما بداخلهم من خلال نشاطات مثيرة وغير ضارة يمكن أن يجد من السلوك العدواني. (6)

- **التصريف:** هو تفريغ انفعالي يتخلص الشخص بواسطته من العاطفة المرتبطة بذكرى حدث صدمي، مما يحول دون تحوله أو بقاءه مولدا للممرض وقد يتم التصريف الذي يمكن افتعاله خلال العلاج النفسي. (7)

- **التسامي:** هو القدرة على التصعيد على ضوء إيمان الحالة أو الفرد بهذا التسامي تحت إيقاع الموسيقى والغناء الديني، حيث تترهل تدريجيا الحواس الخمس (العالم الحسي) فيضعف البصر ويقل السمع ويتعطل اللمس والذوق، وفي المقابل يبدأ الجهاز العصبي الذاتي اللاإرادي بالنشاط والحيوية (تتلاشى القدرة الحسية للعصب الذاتي تماما وتنشط القدرة الحركية له تماما)، فتزداد إفرازات المعدة دون أن يشعر بها (بسبب تعطل إحساس العصب التائه المغذي للمعدة، وتزداد ذبذبة الموجات الدماغية وكهربائيتها في المناطق الحركية في المناطق الحركية، في حين تنخفض في المناطق الحسية، ولذلك فعند توجيه أي ضربات عنيفة لهذا الشخص فإن النقل الحسي يكون عاجزا عن إشعاره بأي ألم (لأنه معطل). (8)

ونجد أن التسامي عند فرويد نوع من تعديل الهدف وتغيير الموضوع الذي يدخل فيه تقويمنا الاجتماعي (للمسألة) بعين الاعتبار، أما ميلاني كلاين فتشير إلى أن التسامي نزعة نحو تعويض وإصلاح الموضوع (الطيب) الذي مزقته النزوات التدميرية إربًا في نفس ذلك الخط الفكري. (9)

- **التطهير:** هو التنقية وعند "أرسطو" هو تصفية انفعالي الشفقة والخوف اللذان تشيرهما التراجيديا، ويشير كذل إلى أن الموسيقى تمارس نوعا من التطهير بتأثيرها على الإنسان أي "يكون الناس جميعا في حالة تطهر وتستضيء نفوسهم وتبتهج"، وقد ورد مصطلح تطهير عند اليونان بمعاني عديدة: ديني، جمالي، فسيولوجي، طبي، وهنا يتضح أن التطهير يحتوي على عناصر فسيولوجية

(الراحة بعد توتر انفعالي كبير) وأخلاقية (الرفع من قدر مشاعر الإنسان). ويرى أ.أوزينغان(1886) وشارل ادوار جينيريه جرى (1887) مؤسسي الفن الحديث في عشرينيات القرن العشرين في فرنسا: أن المهمة الرئيسية للفن هي التطهير.⁽¹⁰⁾

والتطهير هو اسم أطلق على أول منهج في العلاج النفسي وقد جاء من طقوس الإغريق المعتمدة في الشد والتلقين، بحيث يعقد المريض صلة مع مؤخرة عقله بواسطة التنويم أو بدونه، أي بوضع المريض في حالة التأمل والتفكير.

ويهدف العلاج بالتطهير إلى الاعتراف الكامل لا مجرد إقرار العقل بالوقائع بل تثبيت بواسطة القلب وإطلاق فعلي للمكبوت من الانفعالات، للاعترافات التي تكون إثر عملية التطهير أثر عظيم في نفسية الإنسان والشقاء الذي ينتج عنها غالباً ما يبعث على الدهشة.⁽¹¹⁾

مما سبق يمكن القول أن الوظائف النفسية التي تتيحها هاته الممارسات و المتمثلة خاصة في التطهير و التسامي تجسيد لأليات دفاعية ناجحة و مقبولة اجتماعياً فهي عبارة عن تحويل طاقة مرتبطة بدوافع المجتمع قيوداً على اشباعها الى أهداف و إنجازات يقبلها المجتمع .

فبعض العلاجات الجماعية الفلوكلورية تلعب فيها الحركة(الرقص) دور أساسي في اطلاق الطاقات المكبوتة في وجدان المؤدي من خلال عنف الحركة و عنف دق الطبول اذ يعبر المؤدي عن عواطفه و انفعالاته من خلال حركات الجسد و من خلال الاغاني و التراتيل المعينة تتحقق الاثارة النفسية داخل الجماعة دون قيود وهذا ما أشار اليه برونو ليفيين في دراسته عن الزار المصري و التي كانت تبحث في علاقة رقصة الزار بشعائر الرقص الطي عند شعوب اخرى وبنون الرقص في العصور الوسطى⁽¹²⁾.

4. أهم الطقوس العلاجية الجماعية:

—فرقة عيساوة: يعود تأسيس هذه الفرقة إلى محمد بن عيسى بالمغرب الذي كانت حياته مملوءة بالمعجزات والحوارق، فكان بهذا شخصية أسطورية، تميز كذلك بإلقاء الدروس الدينية في الزوايا، وانتشر أتباع الطريقة بالجزائر و خاصة في المدينة، تلمسان، قسنطينة، عنابة⁽¹³⁾. وفرقة عيساوة كغيرها من الفرق الدينية العلاجية يملكون أذكارهم (Dhikr) الجماعية التي يمارسونها إما في وقت الحضرة اليومية أو السنوية أين يتأسس الفرقة قائدهم المبرك، أما في الاحتفالات التي تهدف إلى العلاج

فإنهم يرددون أذكارهم الجماعية، ويعتبر هذا الذكر بما يحتويه من مدائح بمثابة تمارين تعبر عن الانتماء للسلف والتشبث بالدين؛ إذ تتكرر فيه أسماء الله الحسنى، وكذلك تذكر فيه آيات بيانات من الذكر الحكيم بصوت مرتفع. هذا الذكر الذي يمارس تحت إشراف الشيخ القائد.⁽¹⁴⁾

- **قناوة:** هي مستقاة من نفس التيار العيسوي، والتي نجدها عند الأمريكيين السود وإفريقيا الشمالية ويقال

أن قناوة تجمع كل الذين أتوا من عبيد إفريقيا السود عند وصولهم إلى المغرب بالخصوص حوالي القرن العشرين في فترة المبادلات التجارية بين إفريقيا السوداء إلى جنوب إفريقيا وإفريقيا البيضاء إلى شمال القارة الإفريقية.

طبع قناوة المغاربية يكمن في الخطاب الطقسي الذي يحتوي أولاً على:

1- تلاوة القرآن

2- أغاني تتلو تاريخ أجدادهم، أصلهم.

فالأولى تعتمد على الثقافة الإسلامية والأماكن المقدسة والأولياء الصالحين (الشخصيات الأسطورية). أما الثانية فيذكر فيها أسماء مبهمة وغريبة وهي قد تعود إلى أصلهم وفصلهم الأفروسوداني؛ وما يكمن ملاحظته عند قناوة بداية القيام بالطقس خليط من الابتهالات الدينية والتي يتضرعون فيها إلى الله ويذكرون الله بأسمائه ويصلون على الرسول الحبيب، هذا من جهة والرقصة الفريدة من نوعها والرائعة من جهة أخرى والمميزة كذلك، والتي يرحى من خلال الرقصات التي تحويها من خلال التبرك بالأولياء الصالحين بإخراج الجن الذي يستحوذ على الفرد أو العميل إذ نجدهم يقومون بعرض بعض الحركات كلما قاموا باستحضار الجني المستحوذ على الفرد عن طريق استخدام الخناجر، العصي، بعض الروائح والبخور.

ويعتبر هذا الطقس تقنية علاجية تشتهر بها مجموعة أو فرقة قناوة.⁽¹⁵⁾

- **الزار:** هو طقس جماعي نسوي أو حفل تطلق فيه البخور وتدق الدفوف وتحتز الأجسام وينادى على الجن أو العفريت ويطلب منه صراحة أن يترك جثة المريضة لقاء هدايا خاصة، قد لا يخرج الجن أو العفريت من أول مرة ولهذا قد يتكرر هذا "العلاج" مرات عديدة إلى أن يتم الشفاء.

والهدف أو الدافع لإقامة هذا الطقس هو العوامل النفسية التي كانت تعيشها المرأة كالاكتئاب والعصبية وبعض الاضطرابات العاطفية وأمراض عقلية ليست خطيرة، نظرا للكبت الذي تعيشه المرأة في البيت، وعدم مشاركتها في الأنشطة الاجتماعية غالبا التي قد تنفس عنها بعض معاناتها؛ ومن هنا تلجأ النساء إلى الادعاء بأمراض قد تكون وهمية وقد تكون حقيقية عليها تحظى بنشاط فيه من الحركات والظواهر الغريبة ما يفرج كرها، ويفرغ شحنتها المكبوتة، فهن يلجأن إلى الزار لاعتقادهن بجدواه⁽¹⁶⁾. والزار من الطقوس التي تشتهر بها مصر والسودان.

— **النشرة:** إن كلمة نشرة تعنى أبعـد المرض وهي طريقة علاجية تقوم في جماعة تستعمل لإبعاد أو خروج المرض وأحيان الشيء السيئ (الجن) وتتكون من عدة مراحل يتبعها تقديم شيء مقابل خروج الشيء السيئ وأهم ما يقدم غالبا هو أضحية (ذبح). ويقال أن النشرة أصلها بربري بعدها جاء الأفارقة وأخذوها منهم، ومن ثمة المسلمون وهذه الطريقة تعتبر ذات مفعول، ولا زالت موجودة في قسنطينة، فهذا الطقس العلاجي التقليدي والمتمثل في النشرة ينظم جماعيا بحيث تكون لها وظيفتين: وظيفة علاجية، وأخرى وقائية.

فهي إذن ذات وظيفة علاجية ووقائية من الأمراض العقلية والنفسية وذلك من خلال محاولتها لتحكيم وضبط الضغوطات الاجتماعية. إن طلب أو استدعاء هذه المجموعة العلاجية (النشرة) في حالة المرض يكون إما من طرف أفراد عائلة الحالة (المريض) أو من طرف الحالة نفسها⁽¹⁷⁾.

تم المعالجة في (06) أيام ويجب أن تكون في فصل الخريف وأن تكون يوم الأربعاء في الصباح، والمريض لا يأتي وحده إنما يجب أن يأتي برفقة أحد من عائلته، يقومون بداية بزيارة الوالي في منطقة قسنطينة بحيث يكون عدد الأولياء الذين تتم زيارتهم أربعة (04 أولياء). والأولياء هنا بمثابة (المقدس) أو ما يعرف بالشخصية الأسطورية (Marabout) وهي شخصية مقدسة يزورها الناس، فقد تكون كما أشرنا سابقا ولي صالح أو أحد الصالحين كأمثلة على ذلك: سيدي راشد، سيدي علي مخلوف في قسنطينة.

ويتحصل الفرد على هذه الشخصية الأسطورية عن طريق الوراثة غالبا، والشخصية الأسطورية على عكس شخصية الطالب والمعالج التقليدي على اعتبار أن المعالج التقليدي أو الطالب في مكانه على عكس الشخصية الأسطورية.

وهناك من الأفراد أو الناس من يتخذ الشخصية الأسطورية بمقابل العلاج النفسي (Psychothérapie)

إن فعالية العلاج عن طريق الشخصية الأسطورية والذي يعادل وقد يتجاوز الأخصائي النفسي (Psychologie) يعود إلى كون الشخصية الأسطورية تتطلب من ثقافة المريض والتحاور معه.

من منطلق ثقافته فثمة إذن أرضية وأفكار من خلالها تبسط الشخصية الأسطورية نفوذها وهذا المفعول هو مفعول سحري، وكأمثلة للمقدسات كذلك القبة حيث يزورها أو يقبل عليها الناس، ففي الثقافة إذن يوجد شيء سحري يسمح أو يعطي مفعول علاجي نفسي وخاصة التداعي الحر (Suggestion)، أين تتشكل علاقة كبيرة وذات سيطرة على نفسية المريض.⁽¹⁸⁾

عند زيارة الأولياء الأربعة (الشخصيات الأسطورية) يجب على عائلة المريض أن تذبح في كل مكان حمامة أو ديك أو تضع حلوة قرب الوالي الصالح (مقدس) وكأنها هدايا للجن. تلبس المريضة أحسن حلة لها عند الزورة، ويصنع "أهل المريض حفلة لها وكأنها عروسة، وبعد الساعة الثانية عشر زوالا يقومون بالرقص في دار المريضة ويغنون ويدقون على الطبول، وتكرر هذه العملية (الرقصة) خمس مرات بحث يكون الغناء أو الأناشيد التي يرددونها دينية وبين الحين والآخر يذكرون الوالي الصالح وهي تعرف "بالتوبة" بعدها المريضة تبدأ بالرقص ببطء، ثم تزيد في الريتم إلى أن تصل حد تزيد في الحركات والتحرك بقوة وعنف، تزيد فيه حركات الرقص قوة وعنفًا حينما تسقط المريضة أو العميلة مغميا عليها في حال لا وعي، عندها يرشونها بماء الزهر ويشدونها حتى تستيقظ، وعند انتهاء المراسيم، أناس المريضة يستضيفون مجموعة الرقص (الطقس الفلكلوري)، تكرر هذه الطقوس لمدة 3-4 أيام، وفي هذه الفترة العلاجية يسهر أهل المريضة على رعايتها وحراستها.

وفي يوم الإثنين صباحا وهو آخر أيام النشرة، المريضة ترسل أو تعطي هدايا للفرقة أو المجموعة العلاجية الموسيقية السود، ثم تتقدم من الفرقة أو المجموعة الطقسية العلاجية الفلكلورية بحيث الفرقة تدق على الطبول والمريضة ترقص عشرة (10) رقصات، وهذه الإيقاعات التي تقوم بها الفرقة تشبه إيقاعات إفريقية، تكون هذه الإيقاعات سريعة والأصوات مرتفعة ورائحة البخور، والمريضة تكون في حالة وعي ولا وعي، وهي تصرخ وتضرب نفسها بجبلين (02) وعند رؤية هذه

الحركات يفسرونه على أن الجن بدأ يقلق قبل أن يخرج، ثم تسقط المريضة بعد هذه الحركات العنيفة، فيجلس أهلها يجنبها حتى تستيقظ وعندها يقولون لها أن الجن قد خرج منها. في نهاية الحفلة أو الطقس يجب على المريضة أن تغتسل وتغير ملابسها وهذه تعتبر وكأنها عملية تطهيرية، وترجع أو تندمج في أعمالها اليومية. وإذا لوحظ أن الحالة (المريضة) أصبحت في حالة عادية من خلال برنامجها أو أعمالها اليومية فيفسرون هذا بأن الجن قد قبل ما قدموه إليه وخرج، تكون هذه الملاحظة أو المراقبة على فترة عام، أما إذا رأوا أنها عادت إلى حالتها المرضية، فإنهم يعيدون الطقس وهكذا دواليك عام بعد عام.

يعلق الأطباء النفسانيون على هذا الطقس، فيشيرون أن هذه الأعراض والتصرفات الصادرة من الجماعة العلاجية وكل من الحالة هي أعراض هستيرية جماعية لكن "R.Bastide" لاحظ أن هذه الطقوس لديها وظيفة علاجية ووقائية للمرضى العقلين وكذلك لضبط التوترات الاجتماعية. فالطريقة العلاجية التقليدية والمتجسدة في "النشرة الجماعية" تعمل على إحداث نوعا من التكثيف للصراعات والحد منها في المجتمع. وتعتبر ديناميكية الفعل العلاجي للنشرة معقدا لأن هذا الإنجاز يتزامن فيه العلاج الاجتماعي مع العلاج النفسي.⁽¹⁹⁾

فهي طريقة علاجية اجتماعية ونفسية، وهي تعطي وتوفر للفرد مجموعة من الدفاعات الثقافية الأثنوسيكولوجية بحيث تمكن العميل من مواجهة الصراعات التي تحيط به. والنشرة كما أسلفنا علاج اجتماعي ونفسي.

1- علاج اجتماعي (Socio-Thérapie): وذلك من خلال :

أ- التنظيم الطقسي الجماعي من طرف النسوة للنسوة، فهو حقل طقسي يقتصر على النسوة فقط، أين يستطيعون ترجمة وتفسير هذا التفاعل الذي بينهم وتعديل الوضعية أو المكانة السفلية التي تحتلها المرأة في المجتمع التقليدي والتي تعتبر المرأة فيها تابعة وخاضعة بحكم المجتمع الذكوري، فهي إذن هنا بمثابة تعويض لوضعية المرأة التي تتصف بالخضوع والنقص في المجتمع التقليدي.

ب- كونها جماعية تحوي جمع الأولياء والأقارب والأصدقاء أين تصبح محطة ينقطع فيها التوترات البينية أو الداخلية، بحيث يصبح شغلهم الشاغل هو المريضة بحيث يتجمعون حول هذه المصيبة التي

أصابتهم، ضف إلى ذلك أنهم يحضروهم للطقس ينزهلون بتلك الرقصات والشطحات الجسمية في هذا العرض أين المجموعة تصنع مشهدا مثيرا تؤكد من خلاله ضرورة التماسك والالتحام والتضامن.

2- علاج نفسي :

من خلال الارتباط ومشاركة المحيط العائلي للمريض في هذا الطقس (النشرة) أو الجو المملوء بالحرارة العاطفية الإنسانية، يساعد هذا على طرد العدوانية أو تفريغها وإعادة التنظيم المفترض أن يكون بين هؤلاء (المريض، الأقارب، الأصدقاء، الفرقة أو الجماعة العلاجية)، وهذا يتم على عدة مستويات :

أ- العميل (الحالة) تكون محمية ومراقبة من طرف عائلتها وتمتع بنوع من الحماية والرعاية بحيث يلبسونها أحسن حالة وتزين ويتركونها وحدها بعيدا عن الإزعاج، ومن خلال هذه الإجراءات فهي تعتبر مركز هذا العلاج وهي المهمة كذلك في هذا الحفل.

ب- أجواء الموسيقى والرقص وحركات الجماعة العلاجية تجعل للمريضة (الحالة) شيء من الحرية أين يخلق عندها نوعا من التنفيس.

ج- الاحتفال الدوري المتمثل في النشرة هو شيء جيد يشبه في ذلك العبادة التي تحسن من الاضطرابات النفسية. فالنشرة عبارة عن تجربة حامية وتصحيحية وهي طريقة جيدة تسمع بحجز أو جمع الصراع وإعادة تنظيم الآليات الدفاعية بالتدرج للوصول إلى وضعية أحسن فأحسن، وذلك من خلال الجمع الذي حول المريضة من طرف أهلها وأصحابها وأصدقائها.

إذن في حالات الاضطرابات النفسية وخاصة التي يسيطر فيها القلق تعمل الثقافة من خلال طقوس النشرة بتوفير بعض التعليمات أو التسهيلات أين يستطيع الفرد العميل الخروج عن المؤلف دون رقابة اجتماعية، يعتبر علاج النشرة علاجاً مؤقتاً. (20)

فالعلاجات الجماعية التقليدية وخاصة التي تعود فروعها إلى الأصل الأفريقي هي علاجات جماعية متعددة الأقطاب؛ المطب ومساعدته هذا الأخير الذي يجمع بين قوة الأعشاب (التداوي بالأعشاب) وقوة الكلمة، وهي التي تهمنا كونها علاج نفسي، فأغلب هاته العلاجات التي مرت بنا نجد أن لسلطان الكلمة الحظ الوافر في العلاج من خلال الأهازيج التي تردد وما تحتويه من عبارات ذات دلالة و مدلول، فالكلمة تعني القوة وهي تحديدا القوة نفسها في سلطتها المحررة، كما في

سلطتها المحطمة، فهي التي تشفي وترافق بل وتنشط أيضا مختلف مراحل الطقس العلاجي، ولذا فالكلمة تحرر، الكلمة تصلح ذات البين، والكلمة تعيد إدماج الفرد في المجتمع وهي لا تختزل إلى مجرد أداة للتواصل فقط.

5- أهم الممارسات العلاجية الجماعية بمنطقة توات:

منطقة توات أو ولاية ادرار تقع بالجنوب الغربي للوطن وتضم أربعة أقاليم وهي: اقليم تيديكلت، اقليم توات الوسطى، اقليم توات، اقليم قورارة .

- **الركيبة:** هي رقصة شعبية فلكلورية جماعية ولها مسميات عدة وذلك حسب المنطقة (المحارزية، أحواش، الحيدوس، الصف، المائة)، تقوم بها النساء من خلالها يعبرن عن أفراحهن وخاصة مأساتهن بواسطة حركات رقصية تمثيلية تعبيرية (رمزية) وتمرح بها الراقصة لأنها تجد كل المجال لأجل التعبير عن ذاتها الداخلية المكبوتة لديها لأجل علاجها من متاعب الحياة اليومية التي تعيشها.

ومن خلال الرقصة نشاهد عرض مسرحي بواسطة الميمية تروى لنا حكايات من الواقع الذي يعيش فيه المجتمع وهو ما نسميه في علم النفس بالسيكودراما⁽²¹⁾، بحيث تجتمع المجموعة الطقسية الفلكلورية النسوية في وسط الحلقة بآلتهم الإيقاعية تحرر أبيات شعرية من المديح والمجموعة تردد الكلمات، ثم تبدأ الزهوة يقمن النساء بالرقص بعض الأحيان فردي وأحيانا أخرى جماعي، ومن خلالها يظهرن الألبسة المختلفة والحلي والتجميل مرددين:

الله يا الله ما صلي وسلم عليك يا النبي مولاي محمد (تردد من طرف الجمع)

خليني بيني وبين سيدي ربي ولي قال شيء قاع تديه الريح
جيلي عكازي نمشي للنبي ورجليا ما يقدوا يمشوا⁽²²⁾

الحضرة: تتم بواسطة جماعة حاملين البنادير والطبل في حلقة وهم جالسون أو واقفون في بعض الأحيان، يبدأ رئيس الفرقة (المداح) بالمدح من خلال كلمات دينية وتردد من طرف الجماعة في شكل مجموعة صوتية مع استعمال الإيقاع حتى تكون النغمة الموسيقية منسجمة مع الكلام وحركة المجموعة، أما بالنسبة للجالسين وخاصة عند النساء تكون فرقة خاصة بالإيقاع بحيث تصنع جو خاص وكأنها تعيش في عالم من الخيال ولا تدري بما يجري حولها، تكون حالة وعي ولا وعي

الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية و الاجتماعية ————— فاطمة الزهراء شحان

عندها تقع المرأة (الراقصة) في حالة غيبوبة فيوتى لها بالنخور أو العطر أو الشيء الذي تحبه وهي في هذه الحالة حتى ترجع إلى وعيها. والأبيات التي ترددها غالبا هي:

صلى الله عليك يا زين العمامة

من هو واحد يا زين العمامة واحد هو اله يا زين العمامة

من هما اثنين يا زين العمامة آدم وحواء يا زين العمامة

من هما ثلاثة يا زين العمامة أصحاب الروضة يا زين العمامة

فالخضرة طقس فلكلوري خاص بالمديح الديني الذي يعبر عن حياة الأولياء الصالحين وشيوخ الزوايا بالخصوص (التوحيد، الرموز، الذكر...) ويستعمل هذا الطقس كطريقة علاجية نفسانية بواسطة الجدبة والنوبة والرقص الجماعي، وهذا بجوار زاوية أو ضريح شيخ والي صالح. (23)

طقس لعبيد في منطقة توات: لعبيد هو رقصة جماعية ذات طابع إفريقي، يستعمل فيه دف خاص مصنوع من خشب النخيل ومغطى من الجهتين بجلد الجمل يسمى باللدنون ويضرب عليه بعود معقوف يدعى "تقنقة"، الصناجات (قطع حديدية مغروفة)، وهي عبارة عن ثنائيات يدق بعضها على الآخر. (24)

تشكل فرقة أو مجموعة لعبيد من مجموعة من الرجال الحاملين للصناجات، وطبل عند رئيس الفرقة يتم الإيقاع على الطبل أو الدف أولا ثم ترديد الكلمات التي تشتمل على المدح النبوي أو كلمات شعرية يأتي بعدها الإيقاع على الصناجات حتى تكون النغمة منسجمة وتأتي الحركات الجماعية المتنوعة عند إشارة رئيسها بإشارة (قفر رئيس الفرقة) (25)

تنقسم هذه الرقصة إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ عادة بالصلاة على النبي وتعالى فيها عبارات مثل: "صلوا على محمد صلوا عليه وسلم".

المرحلة الثانية: يتم ذكر الأولياء الصالحين والرسول وبعض العبارات الدينية وغيرها مثل:

انبي صلينا

صلوا على محمد

صلى وسلم عليه

صلوا على محمد

لعفوا يا مولانا

لعفوا يا مولانا

أرب أو يا محمد حبيب الله

لعزيز علينا يا ربي صلوا على محمد

توب علينا يا ربي أو لا إله إلا الله

المرحلة الثالثة: عادة تختتم هذه الرقصة بما يسمى "دنقه" وهي عبارة عن رقصة بأداء سريع دون استخدام الآلات، بالأرجل فقط والضرب على الأرض بواسطة الرجلين وتقال فيها بعض الابيات المتداولة في المجتمع المحلي مثل:

يا رجال الله الصلاح وين كنتو حضروا

من زار وزار انزورا لمقام ما هناني

يا شيخ مولاي الطيب يا اللي ضامني

رسول الله وين كانت التوبة

من عندو المفتاح إيحل الباب (26)

تستدعي فرقة لعبيد في مناسبات عدة وأهم التي تكون لها علاقات بالمشاكل التي يعايشها الإنسان على سبيل المثال: إذا ما حلت بالبلاد نازلة يطلب منهم (المجموعة الطقسية - لعبيد-) الدعاء والابتهاال إلى الله حيث أن معظم المنتسبون إلى هذه الفرقة من ضعاف الحال مما يضيفي على دعائهم الصدق والإخلاص. (27)

ويستعمل كذلك هذا الطقس كعلاج لبعض الأشخاص المصابين بالأمراض النفسية والعصبية وحتى الجسمية أحيانا. (28)

وفيما يخص الطقس من بعده العلاجي، الفرقة أو المجموعة تتكون من حوالي 20-40 فردا غالبا والمستوى العمري من سن الرشد إلى سن الشيخوخة، ينقسم أعضاء المجموعة إلى العبيد الأحرار والعبيد فقط، بحيث يكون رئيس المجموعة من العبيد الأحرار وهم الذين لهم حق البيع والشراء.

تقوم المجموعة بزيارة المريض (العميل) قصد التبرك والتخفيف عنهم بالدعاء والصلاة على النبي، وأحيانا أخرى يطلب أهل العميل من المجموعة المجيء حيث تأتي المجموعة ويقرؤون للعميل

الفاحة (يرفدو الفأحة) ويدعون له بالشفاء، بعد القيام باستعراضات فلكلورية وأدعية مطولة في حلقة دائرية وأحيانا أخرى على صفتن متوازيين.

ففي حالة كان العميل صغير السن (طفل) يقول كبير المجموعة بتقديمه إلى كل أعضاء المجموعة ليضع كل فرد منهم يده على العميل، ويدعو له بأدعية الشفاء بعدها يقوم كبير المجموعة بعد تلك الإيقاعات والرقصات بنزع العرق من جبهته بالسبكة (السيقة) "الصناجات" بعدها يقوم بتمرير هذه السيقة على جسد العميل وهو مستقبل القبلة.

تم هذه العملية وهي مرفوقة بدعاء شيخ كبير المجموعة بالصحة والعافية والهناء وطول العمر والأعمال الصالحة بالتهليل والتكبير والمجموعة يرددون الأهازيج قائلين:

لعفو يا مولانا لعفو لعفو يا مولانا لعفو

يا مالانا ليك جيئنا قاصدين يا مولانا لا تردنا خائبين

إضافة إلى هذه الطقوس هناك عملية التشرط للعميل (حجامة) على جبهته غالبا وأحيانا يقوم كبير المجموعة بالتبخير (أم الناس... الخ). وفي الأخير يقدم أهل العميل وليمة رمزية قدر المستطاع وبدون شروط للمجموعة (صدقة).

عند إتمام الطقس يغير اسم العميل غالبا خاصة إذا كان صغير في السن من طرف رئيس الفرقة بعد الموافقة الجماعية. أما الحالات التي تقبل على استعمال هذه الطريقة العلاجية طبعًا بعد أن طرخوا المصححات الحديثة هم: الحالات المحرومة من الذرية، الأفراد الذين لا تصلح لهم الذرية، الأشخاص الذين يمرضون دائما، الأفراد الذين يواجهون مشكلات معينة سواء جسدية (الشكل، الكلام، الوقوف...) أو نفسية اضطرابات في الشخصية حيث يتم المثول للشفاء بالنية الصافية والاعتقاد القوي والتوسل والتوجه إلى الله عز وجل.

ويترتب بعد هذه العملية الطقسية بالنسبة للحالات التي مثلت للشفاء أو تحقق لها مطلبها (المبيوعين) أن يستدعوا المجموعة مرة أخرى حيث يحضر أهل العميل "تيس" ويذبح ويوزع على العبيد والأقارب ويصبح هؤلاء تابعين لهاته الفئة. ومن كل عام يقوم أعضاء الفرقة أو المجموعة بجمع القمح والنقود الخاصة بالأطفال والأفراد المبيوعين للعبيد.

ومن هنا يمكن اعتبار طقس لعبيد أنه شعيرة يحمل طابع الرمزية التعبيرية ويتضمن عواطف ومشاعر من خلال الأفراد الذين يؤدونه وبشكل عام المجموعة العلاجية (مجموعة الطقس، عائلة العميل...) كما يشير إلى ذلك دوركايم إلى أن عملية البيع الرمزي وما تحويه من طقوس هي عملية رمزية أو فعل رمزي يحمل معنى أو تصور لدى المجموعة الطقسية العلاجية، وهو ما يلمح إليه كليفورد جرتز في تعريفه للرمز.

6- تفسير الطقوس العلاجية:

إن الشخصية القاعدية عند الثقافتين الأمريكيين هي تلك المؤسسات (التنظيم الاجتماعي، الجهاز التربوي، المحرمات، الطقوس، الدين) والتي تعطي لكل ثقافة شكلها وبصمتها المميزة، والتي تظهر ذلك الخليط من النماذج الفكرية والسلوكية المقبولة من الأفراد والتي إذا ما خرج عنها الفرد أو الجماعة تولد لهم اضطرابا.

"إن تناقل التعليمات لأفراد الجماعة تمكن كل ثقافة من تشكيل شخصيتها القاعدية الخاصة بها" كما يشير إلى ذلك "KARDINER"، فمصطلح "الشخصية القاعدية" يحدد الخطوط السيكولوجية المشتركة لأعضاء الجماعة السوسولوجية من ناحية طريقة عيشهم، طريقة تصرفاتهم السلوكية، الميكانيزمات الخاصة بهم والتي تستخدم في حالة ضبط القلق وحل الصراعات الداخلية والشخصية القاعدية في الثقافة المغاربية تضم:

1- الإسلام.

2- الانتماء إلى الجماعة الإسلامية: أين ينمو الأنا الجماعي للفرد و الذي يكتسبه منذ الطفولة من خلال الأسرة، المدارس القرآنية، العمل، الطقوس... والانتماء إلى الجماعة الإسلامية ويصبح صلبا في مرحلة النضج مكونا الأنا الأعلى الديني والاجتماعي.⁽²⁹⁾

إن هاته الوظائف: التنفيس، التطهير، التفريغ، التسامي وخاصة التنفيس والتفريغ لا تقتصر على المجموعة التي تقوم بالطقس فحسب، بل نجد عنده بصمة لدى الشخص الذي يطلب العلاج ولدى المتفرج أو الجمع الذي هو بمحاذاة المجموعة الطقسية وهو ما يعرف عند دوركايم بالعدوى الانفعالية والتي تتجسد في نظرية التقارب (Shellow and Roemer 1956) على أن سلوك الجموع ينشأ عن التقاء عدد من الناس ممن يتشابهون في الحاجات والأهداف والدوافع وما

يجبون وما يكرهون، فحسب دوركلم فإن العدوى الانفعالية المنضبطة يمكن أن تؤدي وظيفة نفسية واجتماعية مفيدة تتيح للجمهور التنفيس عن انفعالاتها وتأثراتها مما لا تستطيع التعبير عنه في الظروف العادية وتستثير المشاعر المعززة لتماسك الجماعة، فالتجمعات المنظمة بأشكالها المتنوعة كما هو الحال في المراسيم الدينية قد تتيح المجال لسلوك جماعي ينسجم مع البنية الاجتماعية القائمة ويعززها.⁽³⁰⁾

خلاصة:

من هذا يمكن القول أن الطقوس العلاجية الجماعية الفلوكلورية هي عادة وتقليد مجتمعي اكتسبت صبغة المعتقد وبمعنى أصح المقدس، وهي عودة متجددة للمقدس باعتباره مرحلة متميزة من التعزيم الجماعي اين يتخلص الجميع من المندسات الناشئة عن اجتياح الثقافة الغربية، والحقيقة التي لا منى منها هي أن هاته العلاجات كانت و لاتزال تلعب أدوار نفسية اجتماعية تتجلي في كونها متنفس لمجتمعاتها المحلية كونها محطة من محطات التعبير عن الحاجة والمكنون عن طريق الكلمة و الموسيقى و حركة الجسد بالإضافة الى تناقلها كموروث ثقافي من جيل الى جيل وبالتالي الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع .

الهوامش:

- (1) منظمة الصحة العالمية (2013-2014)، إستراتيجية الصحة العالمية في الطب التقليدي (الشعبي)، جنيف، سويسرا ص15.
- (2) عبد الله بن محمد البداح، الطب البديل والتكميلي في المملكة العربية السعودية الواقع والمأمول، وزارة الصحة المملكة العربية السعودية ، د ط، ص03.
- (3) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور و الفنون الشعبية، المكتب الجامعي الحديث ، الاسكندرية دط، ص2
- (4) -Denis Jeffrey, Jouissance du sacré (Religion et poste modernité), Armand Colin, Paris, 1998, p37
- (5) حامد عبد القادر، (1947)، العلاج النفساني، دار رحياء الكتب العربية ص152.
- (6) خزعل الماجدي، (1998)، بحور الالهة ، منشورات الأهلية ، لبنان، ط01، ص353
- (7) جان لابلاش، وج.ب. بوتنليس، ترجمة مصطفى حجازي، (1985)، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ديوان المطبوعات، الجامعية، ط1، ص178.177.
- (8) خزعل الماجدي، (1998)، بحور الالهة ، مرجع سبق ذكره، ص426

الطقوس العلاجية الجماعية وأبعادها النفسية و الاجتماعية ————— فاطمة الزهراء شحان

- (9) جان لابلاش، وج.ب.بونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي، معجم مصطلحات التحليل النفسي مرجع سابق ص174.175
- (10) م.روزنتال - ب. يودين، (1987)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط6، ص131.
- (11) ك.يونغ، (1985)، علم النفس التحليلي، ترجمة: نهاد الخياط، دار الحوار، سوريا، ط1، ص73
- (12) محمد الجوهري، علم الفولكلور دراسة المعتقدات الشعبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990، ج2، ص601.
- (13) صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر تاريخها و نشاطها، دار البراق، لبنان 2002، ج1، ص256.
- (14) -Ali Aouattah, Ethnopsychiatrie Maghrébine, Ed l'Harmattan, 1993, Paris, p189-190.
- (15) -ibid p191-192.
- (16) بد المحسن صالح، (1998)، الإنسان الحائر بين العلم والحزافة، نشر المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط2، ص86.
- (17) B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui) office de publications universitaires p336.337 ,
- (18) -B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui), op,cit p334,335
- (19) Ibid p337
- (20) Ibid p338
- (21) السيكدوراما: هي تقنية دعم نفسي تستخدم كطريقة نفسية علاجية جماعية فهي تمثل حلقات للتنفيس الانفعالي الاحتوائي من خلال الكلام و تجسيد حركات مختلفة.
- (22) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي، مديرية الثقافة لولاية أدرار، طبع الجاحظية ص2827.
- (23) نفس المرجع السابق ص16.
- (24) قدي عبد المجيد، (2006)، صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، جامعة الجزائر، ط1، ص234.
- (25) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي مرجع سبق ذكره ص16.
- (26) عاشور سرقمة، (2004)، الرقصات و الاغاني الشعبية بمنطقة نوات دار الغرب للنشر و التوزيع. وهران، ص51
- (27) قدي عبد المجيد، (2006)، صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة، مرجع سابق، ص234
- (28) الحاج محمد بلغيث، (2003)، إيقاعات شعبية، عادات وتقاليد فلكلورية في الجنوب الغربي مرجع سابق ص17
- (29) - B-Bensmail (La psychiatrie aujourd'hui), op,cit p222,
- (30) روبرت مكلفين، (2002)، رتشارد عروس، ، ترجمة ياسمين حداد وآخرون، مدخل إلى علم النفس الاجتماعي دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، ص106.107.